المعاشرة وأثرها فى الخلق

للشيخ أبو الطيب سليمان

" المرء على دين خليله ، فلينظر أحدكم من يخالل "
حديث شريف

حديث شريف فاه به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحكمة من حكمه البالغة ، قرر بها مبدأ خلقيا معروفا ، وأرشد بها إلى ما للمعاشرة من أثر بالغ عميق فى الأخلاق . «المرء على دين خليله» ، على طريقه ومنهاجه ، وأسلوبه فى سيرته الخلقية ، أخلاقه صورة من أخلاق ، وعاداته متأثرة إلى حد كبير بعاداته ، إذا كانت نبيلة فاضلة فهى مثلها ، أو كانت غير ذلك فهى نظيرها . " فلينظر أحدكم من يخالل " وليختبر أخلاق من يعاشر أو يجالس قبل أن يضع يده فى يده ، ويصطفيه لأخوته ، وليحذر أن يطلق لنفسه العنان ، ويرسل لها الحبل على الغارب ، تتنقل كما تشاء ، وتعاشر من تشاء ، وتغشى من المجالس ما تهوى من غير أن يقيدها فى ذلك بحث أو تفتيش عن حال من تجالسه ، وميول من تعاشره ، وإلا تصيد حتفه بيديه ، وتعجل لنفسه السقوط الأدبى والخسار الأبدى .

ها نحن أولاء نرى الماء البارد ، وهو السائل اللطيف المنعش ، لا يكاد يجاور النار قليلا حتى يهجر سريعا خواصه ، ويفارق نعوته وأوصافه ، ويستحيل إلى سائل محرق فتاك مهلك ، إذا لامس البشرة أفسدها وشوهها ، وإذا خالط الأمعاء قطعها وأتلفها . فاذا ما جاور الثلج طغى عليه بقوته ، وسيطر عليه ببرودته ، فأفنى ذاته فى ذاته ، وأذهب سيولته ، وأكسبه خاصيته ، وصيره ثلجا مثله .

فاذا كان هكذا تأثر الماء بالمجاور وهو جماد لا حس فيه ، ولا إدراك عنده ، فكيف يكون تأثر الإنسان وهو الذى تسيطر عليه غريزة التقليد والمحاكاة فى جميع أدوار حياته ، وتخضعه لسلطانها ، وتتحكم فى اتجاهاته وميوله من مهده إلى لحده ؟ إنه ولا شك سيكون أعمق وأبعد أثرا ، بل إننا نقول إن الإنسان فى جميع حركاته وسكناته هو مجموعة ألوان صدرت كلها عن غريزة المحاكاة ، وكانت هى العامل الأول الفعال فى تكوينها وإبرازها ، فمشيه على رجليه منتصبا محاكاة ، وأكله وشربه بالكيفية المعروفه محاكاة ، ولغته الخاصة محاكاة ، ومزاجه الخاص أساسه المحاكاة « فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله » وما قول علماء النفس ، وأساتذة الأخلاق ؟ « التربية من البيت تخرج وإلى

ثابت تعود » إلا صدى لما عرفوه عن سلطان هذه الغريزة ، وتقديرا لما للبيئة الخاصة من أثر فى توجيه الشخص ، وابراز ما كمن فيه من استعداد .

ولقد تناول صلى الله عليه وسلم هذه الناحية من الاستعداد الإنسانى فى حديث آخر بقدر أوفى ، و إيضاح أوسع . حيث يقول : « إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير ، فحامل المسك إما أن يحذيك ، وإما أن تبتاع ، وإما أن تجد منه ريحا طيبة ، ونافخ الكير اما أن يحرق ثيابك ، واما أن تجد منه ريحا خبيثة » وهو حديث نزع فيه الرسول الكريم إلى التمثيل ، و إبراز المعنويات فى ثوب المحسات تقريبا للفهم ، كما فصل فيه ما أجمل فى الحديث الأول ، بالإشارة إلى تنوع الأثر النفسى المترتب على المعاشرة ، واختلافه قوة وضعفا ، وخفاء وظهورا ، بحسب تنوع النفوس ، وتفاوتها فى قابلية الخير ، أو المناعة ضد الشرور والأمراض النفسية ، على طراز ما نراه فى انتقال اى مرض عن طريق العدوى من الأجسام المريضة إلى السليمة .

بيان ذلك : أن فى الحديث بجانب الجليس الصالح ثلاث كلمات : إعطاء على قبيل الهبة ، أو ابتياعا من صاحب العطر ، أو وجدان الريح الطيبة — أى عن طريق الشم — وبجانب الجليس السوء كلمتين : تطاير الشرر المؤدى إلى احراق الثياب ، أو وجدان الريح الخبيثة . وهى الدخان الوارد فى حديث آخر . وبديهى أن لكل لفظ من هذه الألفاظ فى الحس معنى يغاير معنى الآخر . ويتفاوت بالنسبة اليه الأثر المترتب عليه . والأمر فيما معنا كذلك .

فطيب النفس نقى السريرة اذا جالس الأخيار من علماء وصالحين ؛ زادوا جوهره نقاء ، ونفسيته صفاء ، وكان انتفاعه بحكمهم ، واتعاظه بأحوالهم ، واستباقه الى العمل بنصائحهم بالغا الغاية ، وافيا بالمراد ، وذلك ما يشير اليه قول الحق سبحانه : «واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا » فغنمه عظيم ، ونصيبه من الخير كبير جسيم . أما اذا جالس الأشرار الغافلين ، العصاة المعرضين عن ربهم ، المفتونين بملذاتهم وشهواتهم ؛ فان الضرر الذى يصيبه منهم لا يكون الا يسيرا ، غايته قسوة تغشى قلبه ، وثقل عن الخير يعرقل جهاده . ومن ذلك ما ذكر عن الشافعى رضى الله عنه ، « ما جالست سفيها الا وأحسست بثقل فى الجنب الذى يليه » ، وهذا هو الذى أشير اليه فى الحديث بكلمة الدخان أو الرائحة الخبيثة .

أما من لم تخالط حلاوة الطاعة قلبه ، أو كان قريب عهد بتوبته ، أو حديث عهد بخير ، فهذا وان كان يستفيد قطعا من مجالسة أهل الكمال النفسى ، الا أن استفادته منهم محدودة ، وحظه ضئيل نوعا لغلبة النزوة السابقة عليه ، وبقاء آثارها فى أعصابه ومشاعره . ومن ثم

يكون ظهورا الأثر عليه مبدئيا غير ملحوظ الا لدقيق الملاحظة . ولكنه اذا خالط أهل الشر وأنس بهم وركن اليهم ، خطى سريعا الى صفوفهم ، وانضم فى أقرب وقت اليهم ، وربما سبقهم الى الشر ، وزاحمهم فى الإجرام . وهذا هو المشار اليه فى الحديث باحراق الثياب .

وكما أن آثار الرائحة الطيبة تزداد وضوحا فى ملابس من يجالس بائع العطر اذا ما أطال الجلوس أو كرره ، وآثار الدخان تزداد أيضا ظهورا فى ملابس من يجاور الحداد إذا اما أطال الجلوس أو كرره ؛ كذلك الحال فى مجالسى الأخيار ومخالطى الأشرار ، لا يكاد أحدهم يحس بالأثر فى المبدأ ، ولكنه كلما عاود المجالسة وكرر الاختلاط ظهر طابع من يخالطهم عليه ، وأحدث تطورا فى تصرفاته وأخلاقه رضى ذلك أم كره . ولو ذدنا نعدد الشواهد والأمثلة على ذلك من ذكرياتنا الماضية لطال بنا الحديث جدا .

فليحذر أولئكم الذين يهملون هذا الأمر ، ويقذفون بأنفسهم فى أحضان البيئات الفاسدة ، غرورا بالنفس واستبعادا للعدوى من خلال السوء ، زاعمين أن لهم من متانة أخلاقهم خير عياذ ، وليعلموا أن النفس والشيطان كثيرا ما يغران بالشخص ، ويوهمانه من نقسه القوة ، ومن أخلاقه المتانة ، وهو من الضعف الخلقى والرقة الدينية بمكان ، وليأخذوا لأنفسهم من حال الغير عبرة ، فالعاقل من وعظ بغيره . وكم أفسدت مجالس السوء ، وعشرة أهل السوء نفوسا ، وكم لوثت أرواحا طاهرة ، وحرفتها عن صراطها المستقيم الى طريقها المعوج الشائك .

ليحذر المتهاونون العاقبة فى أنفسهم وفيمن وكل اليهم أمرهم من أهل وأولاد ، ليفحص الأب حال البيئة التى يختلف اليها أولاده ، وليتعرف على اخلاق من يرتبطون بهم برباط الصداقة والمعرفة ، وليتحسس أبناء زائرات منزله ، والمختلفات الى أهله وبناته ، ليفر المستقيمة ويقبلها داخل منزله ، ويعمل على ابعاد المعوجة ، والحيلولة بين أهله وبينها ، وليكن حازما فى موقفه ، حكيما فى تصرفه والله يهدينا جميعا سواء السبيل .

أبو الطيب محمد سليمان
واعظ القاهرة